بنية المكان في المقامة الهمذانية بين الدلالة والجمالية

The structure of space in the Elmakama Hamdhania between significance and aesthetic

نورالدين دريم أستاذ محاضر أ

قسم اللغة العربية، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

n.drim@univ-chlef.dz

0775249366

تاريخ الاستلام: 2018/05/31 تاريخ القبول:2018/07/18

ملخص:

المقامة جنس أدبي نثري تشتغل وفق محورين: الأول منهما يختص بتصوير الحياة الاجتماعية لدى العرب عبر حقب زمنية مختلفة، والثاني يختص ببيان القيم الجمالية والفنية، التي تنتج عن أحداث تقوم بها شخصية واحدة –في الغالب الأعم – ضمن إطار العمل الأدبي، والمتفق عليه أنّ الكدية هي الموضوع الرئيس للمقامة، وهي تحمل أيضا رسالة المبدع وتعكس واقعا حضاريا.

تهدف هذه الدراسة إلى بيان البعد الجمالي للمكان في مقامات بديع الزمان الهمذاني، مع إبراز دلالاته، من خلال استقراء ما جاء منها في مقاماته.

الكلمات المفتاحية: المقامة، الهمذاني، المكان، القيم الجمالية.

Abstract :

Elmakama is a genus literary prose operates in two axes The first is to portray the social life of the Arabs through different periods of time, and the second is to show the aesthetic and artistic values that result from the events of one person - most often - within the framework of literary work, Is the main theme of residence, and it also carries the message of the creator and reflects a civilized reality.

The purpose of this study is to explain the aesthetic dimension of the place in the temples of Badia alzaman Al-Hamdhani, with its significance, through the extrapolation of what came from it in its sanctuaries

Keywords :Elmakama , Al-Hamdhani, Aesthetic values, space

مقدمة:

تعدّ المقامة من الأجناس الأدبية النثرية التي استطاعت- إلى حدّ كبير - أن تصوّر حركة المجتمع العربي، وأن ترصد مساره التاريخي وانحرافاته، وقد أسهمت أيضا في إبراز الخبرة الشعورية التي تمتّع بها الإنسان العربي آنذاك، وفي السياق ذاته كشفت عن قيم جمالية وفنية، وأخرى فكرية وإنسانية بله دينية في بعض المواضع، وثبات شكل هذا الجنس الأدبي (المقامة)، لم يمنعه من حمل جملة من الرموز والدلالات، وهي في نسقها تمثّل السجلّ التاريخي للواقع الاجتماعي والفكري السائدين في تلك الفترة، فرسم صورتهما في قالب أدبي هو إقرار بمبدأ التجديد، الذي أملته ظروف القرن الذي ظهرت فيه المقامة، فقد جسّد فعل البطولة في شخصية واحدة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، كلّ ذلك سيق بأسلوب مسجوع، وموضوع الكدية، لازمهما السفر والتّهكم والسخرية، مع شيء يسير في اختلاف مضامين المقامات، فقد مثّلت المقامة " مرآة ناصعة انعكست عليها الحياة بمناحيها المختلفة من اجتماعية وأدبية وعقلية، وحتّى أخلاقية "[1].

لمّا بنيت المقامة على أساس اجتماعي، خصّها النقاد ببعض الوظائف، كالسخرية والتهكّم والإضحاك، ومع ذلك فإن المقامة أسهمت بشكل فعّال في النقد الاجتماعي لمظاهر الفساد السياسي في ذلك العصر، والذي عانى من ويلاته المجتمع العربي، فلا سلم من ظلم الحكام، ولا نهش الآفة الاجتماعية، ولا سوط المعضلة الأخلاقية، وبعيدا عن هذا الجانب المظلم، فإنّ أصحاب المقامات لم يغفلوا تصوير ملامح المدنية والعمران، ورسموا صورة فنية لمختلف التطورات التي صاحبت الحياة.

فهذا بديع الزمان يصوّر أدق تفاصيل القصور، والأحياء، ودور الصناعات التقليدية، مقدّما بعض المشاهد العمرانية في قالب فنيّ لا مثيل له، عاكسا به الحياة المدنية في ذلك العصر، ولأدلّ على ذلك وصفه للحمام في المقامة الحلوانية[2]، فقد تمكّن الهمذاني من أن يتغلغل في أعماق الحياة في مختلف مظاهرها، وأن يكشف عن أسرار المجتمع؛ مبيّنا طرائق تعاملهم وسلوكاتهم ومستواهم الفكري، والأدبي، والثقافي الذي يستحسن اللفظ المتين المصاغ في نسق الأسلوب المسجوع، حيث يتجاوز الوصف فيه الوظيفة الجمالية التي انعكست في العنصر الحضاري الذي قدّمته المقامة في أبهى حلّة.

واستمرت المقامة إلى عصور متأخرة، تحمل رسالة المبدع وتعكس واقعا حضاريا ما فتئ يزداد تطورا يوما بعد يوم، حتّى غدت المقامة، " من أعظم الأجناس الأدبية النثرية في الأدب العربي شأنا، و أطوله عمرا، و أقدره على القيام في وجه الدهر على مدى قريب من عشرة قرون"[3].

يتساءل القارئ وهو يقرأ مقامات الهمذاني؛ لماذا هيمن المكان بأبعاده المختلفة على متن المقامة ولماذا لم تخل مقامة من ذكر المكان بأي سبيل كان؟ ولماذا لازم المكان الهمذاني في مقاماته؟.

هي أسئلة سنحاول الإجابة عنها من خلال إبراز بيان الأمكنة التي وظّفها الهمذاني في مقاماته.

1- خصائص فن المقامة:

عالج الدارسون والنقاد فن المقامة على مستويين، الأول مستوى البناء (الشكل)، والثاني المحتوى، فطالعونا بجملة من الخصائص نذكر منها:

- القالب القصصي: على مستوى البناء، تتطرق المقامة إلى موضوع معيّن، يقوم بجلّ أحداثها بطل واحد، وقد تصحبه شخصيات ثانوية، يضاف إلى ذلك راوٍ يتتبع حركة

البطل، تتناغم الأحداث في منحى تصاعديّ حتّى تبلغ ذروة التأزم، لتعود وتنفرج في نهاية المقامة بتتويج البطل بمأربه، وكلّ ذلك يتم في زمن معيّن ومكان مثله.

- لا يفارق الخيال المقامة، وقد يسيطر في غالبها على مجرى الأحداث، " فكثيرا ما تتناول أفكارا طريفة، لم يسبق إليها كاتب من قبل"[4] ، وهذا ما يجعلها ذات قالب قصصي؛ لأنّ " القصة في الحقيقة ليست حادثة وأسلوبا فقط(...)و إنما هي مقومات أخرى أهم من الأسلوب و الحادثة، كالحبكة، و الشخصيات، والعقدة، وكل ذلك موجود في المقامة"[5] . كما أنّها " تتوفر على جميع عناصر الأقصوصة، من حركة و تحليل نفسي واجتماعي و حوار "[6]، وهذا الأمر يجعلها ذات طابع حكائيّ، ولكن من الدارسين المحدثين من يخالف هذه النظرة، ويرى بأنّ المقامة تختلف عن القصة، فالمقامة عند شوقي ضيف" حديث أدبيّ بليغ، و هي أدنى إلى الحيلة منها إلى القصة، فليس من القصة إلا الظاهر فقط، أما في حقيقتها فحيلة يطرفنا بها بديع الزمان وغيره لنطلع من جهة على حادثة معينة، ومن جهة ثانية على أساليب أنيقة ممتازة "[7] ؛ لأنّ الغاية من المقامة - في نظر شوقي ضيف - التعليم والأسلوب الذي تعرض به الحادثة كما أنّ غلبة اللفظ على المعنى فيها يبعدها عن القصة كما عبّر.

- اللغة: تميّزت لغة المقامات بالثروة اللفظية ذات الطابع الغريب، فجاءت مليئة بالمحسنات البديعية والصور البيانية، فكأنّما ألجم الأديب عقله وأطلق العنان للسانه، ليبتكر صورا للتعبير في حدود سطحية دون التغلغل إلى عمق المعاني.

- الموضوع: أدار أهل هذا الفن موضوعاتهم حول الكدية أو الشّحاذة، وظلت عندهم الموضوع الرئيس للمقامة وهو الأساس الذي تبنى عليه المقامة، وإن تطرقوا إلى موضوعات أخرى، فمعظم " المقامات تعتمد أساسا على حيل المكدين و أخبارهم و مغامراتهم، و كانت هذه الحيل تبلغ أحيانا مبلغا عنيفا "[8] .

- للمقامات ميزات ثلاث: السفر والنسبة والتخفي، فالخطاب فيها ينسب إلى شخصيتين خياليتين ثابتين، أحدهما أديب متسول، و الآخر راوٍ يتبع الأول أينما حل و ارتحل[9]، وأما السفر فسمة مميزة للمقامة، إذ نجد كلاّ من البطل و الراوي في ترحال دائم، بحثا عن قصة جديدة " فالمقامات جولة واسعة في مملكة الإسلام"[10]، وأما التخفي فقد لعب الدور الأساس في استحداث موضوع الكدية، الذي يلجأ إليه البطل لأداء دوره البطولي في المقامة.

- ثبات شكل المقامة : تعرض أحداث المقامة وفق خصائص بنائية ثابتة، تجمل في: اللغة، البطل، الراوي، الفضاء، الحدث، الزمان، المكان، موضوع الكدية، اللقاء، العقدة، والفراق في نهاية المقامة.

2- الجمالية والعمل الأدبي:

قيل إنّ الحاجة الجمالية هي أرسخ الحاجات التي تميز الكائن البشري؛ لأنّها " أكثرها ثباتا وقوة وهذه الحاجة لا يصار إلى ممارستها في الميدان الخاص والمحدود للفنون الجميلة فقط، حيث تجد في الحقيقة كفاياتها الأكثر سموا و صفاء و كثافة، وإنما تلقاها أيضا كقوة محركة وموجهة ومتممة ومشرفة ومستشرفة معا في مختلف ميادين النشاط الإنساني، كما نلقاها في الإطار العلمي البحت، بمقدار ما نجدها في الإطار الروحاني، و المعنوي الأسمى"[11].

إنّ النص الأدبي يشكّل كلاّ متكاملا، يؤدي فيه كل عنصر وظيفة أساسية، هي الحرص على ديمومة الترابط بينه وبين العناصر الأخرى، ليضمن تشكّل الجمالية بسلاسة، فالجمال لا ينشأ إلى بعد اجتماع عناصر متعددة داخل النص وفق نسق معيّن، ويدرك انطلاقا من جملة من المؤثرات الخارجية والداخلية والظروف المحيطة بالنص، وللحواس جزء في إدراك جمالية النصوص الأدبية.

إنّ الجمالية نزعة مثالية تبحث في الخلفيات التشكيلية للنتاج الأدبي و الفني، وتختزل جميع عناصر العمل في جماليته، وترمي النزعة الجمالية إلى الاهتمام بالمقاييس الجمالية بغض النظر عن الجوانب الأخلاقية، انطلاقا من مقولة الفن للفن، وينتج كل عصر جمالية إذ لا توجد جمالية مطلقة، بل جمالية نسبية، تساهم فيها الأجيال والحضارات والإبداعات الأدبية والفنية، ولعلّ شروط كل إبداعية هو بلوغ الجمالية إلى إحساس المعاصرين"[12]. والشعرية هي النص ككلّ الذي كان في البدء كلمة، هذه " الكلمة في التجربة الجمالية إشارة حرة، تمّ تحريرها على أيدي المبدع الذي يطلق عتاقها و يرسلها صوب المتلقي، لا ليقيدها المتلقي مرة أخرى، بتحور مجتلب من بطون المعاجم، وإنما للتفاعل معها، بفتح أبواب خياله لها؛ لتحدث في نفسه أثرها الجمالي، و هذا هو هدف النص الأدبي ، و على هذا تصبح قيمة النص فيما تحدثه إشاراته من أثر في نفس المتلقي"[13].

ومن علم الجمال انبثقت الجمالية التي تهتم بجميع الفنون (الأدب، الموسيقى، الرسم ،العمارة، النحت، ... وغيرها)، " فالجمالية هي البحث العقلي في قضايا الفن على اختلافها من حيث أن الفن صناعة، خلق جمالي، لها أصولها المتنوعة ولها حرفياتها التقنية الخاصة... غير أنّ البحث العقلي في قضايا الفنّ والأدب لابدّ حتىّ يرقى إلى مستوى الجمالية ويصبح في نطاق علم الجمال، من أن يكون النظر فيه مستندا على نظرة فلسفية عامة، للحياة، والكون، يندرج النظر الجمالي في سياقها، كما تندرج في هذا السياق أيضا سائر مواقف الباحث من ظاهرات الحياة وقضايا الإنسان و نشاطاته"[14] .

وتبقى اللغة هي الوسيط الفعّال المترجم للجمال في النص الأدبي، لما تقوم به من وظائف والتي حدّدها منذر عياشي في ست:

" الوظيفة الأولى : و تتجلى في أنها تعطي للأشياء أسماءها و دلالاتها.

الوظيفة الثانية : وتتجلى في رسم موقف المتكلم من الأشياء التي يتكلم عنها...

الوظيفة الثالثة : وتتجلى في قدرة اللغة على خلق الأشياء التي لم تكن...

الوظيفة الرابعة : وتتجلى في إعطاء الأشياء معانيها ومعاني إضافية إلى معانيها...

الوظيفة الخامسة : وتتجلى في قدرة اللغة على إعطاء المعاني معاني ليست من مسميات أشيائها

الوظيفة السادسة : تتجلى في رسم موقف إنساني يدخل في دائرة معرفة الإنسان بنفسه

ولكن اللغة تجعله خلقا آخر ليخبر به عن مكنونه في صورة جمالية "[15].

3- أهمية المكان في العمل الأدبي:

للمكان دور كبير في حياة أي إنسان، ولا ريب في ذلك، فهو الركن الأساس الذي يمارس فيه تكوينه الحياتي، وبعد أن تتفّتح مداركه يبدأ بتحديد أبعاده المكانية من خلال حياته العملية، إلى أن ينتهي به المطاف إلى مكانه الأخير.ومن هنا كان الإحساس بالمكان إحساسا فطريا، ومتأصلا في النفس البشرية، ويشترك في هذا الإحساس جميع الناس. فقد مّثل المكان عنصرا مهما - بل أساسيا - من عناصر العمل الأدبي الذي يسعى بدوره إلى إبراز هوية ذلك العمل من خلال التصاقه بشخص العمل الفني الذي لا يستطيع الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال.

وليس أدلّ على أهمية المكان في العمل الفني من مقولة باشلار التي تُقيم العمل الفني وتجعل عنصر المكان هو العمود الفقري الذي يكفل النجاح والإجادة لذلك العمل، حين يقول: " فالعمل الأدبي حين يفقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته"[16]، وكأنّ " باشلار " قد اعتمد واشترط عنصرا مهما وجديدا لنجاح العمل الأدبي، وهو إخضاعه للمكانية، فحين يخلو العمل الأدبي منها ، قد يفقد خصوصيته التي ينتمي إليها

وأصالته التي تعد من أساسيات العمل الأدبي، ومسوغات نجاحه، ونحن نميل إلى رأي "باشلار "نظرا للأهمية القصوى التي ينطوي عليها المكان، فرأيه جاء في صميم الحدث بل وفي إطار الرؤية الثقافية والاجتماعية، التي أساسها المكان.

وما دام المكان يشكّل حدثا بارزا ومهما في سياق المنظومة الإنسانية والثقافية بكل أطيافها، فلا بدّ لذلك أن تكون أهمية المكان لا تقلّ شأنا عن غيرها من عناصر العمل الأدبي الأخرى، وفي هذا الجانب، يقول ياسين النصير مؤكدا على أهمية المكان، وضرورته في العمل الأدبي ، بل وجعله عنصرا مهما وأساسيا من عناصره " إنّ المكان عندنا شأنه شأن أيّ عنصر من عناصر البناء الفني، يتجدد عند الممارسة الواعية للفنان، فهو ليس بناء خارجيا مرئيا، ولا حيزا محدد المساحة، ولا تركيبا من غرف وأسيجة ونوافذ، بل هو كيان من الفعل المغير والمحتوي على تاريخ ما "[17].

ارتبط الإنسان ارتباطا إيجابيا بذلك المكان الذي غدا محورا أساسيا من محاور القضية الإنسانية التي تستمد من ذلك المكان مظاهر القوة والشجاعة؛ لأنه يمثل المأوى الوحيد لمستودع الذكريات الراسخة في ذهن الإنسان الذي أمضى شطرا كبيرا من عمره بين أحضانه فهو مهد الطفولة وذكرياتها، وهو مسرح الشباب وعنفوانه، ولذلك نجد شدّة التصاق الإنسان في كل زمان بمكانه، كما نرى الانتماء الشديد الذي تظهره النّفس الإنسانية، وتكنُّه لذلك المكان الذي أصبح مرآة الإنسان، وهاجسه الذي يرواده في كلّ لحظة، و يشغل تفكيره بين حين وآخر ، حتى إنّ الشعراء والأدباء قد تسابقوا وتفننوا في وصف المكان.

ولا غرابة إن قلنا: إنّ ما يخلِّد النص عبر الزمان والمكان، تلك اللمحات الفنية، التي يستعملها الشاعر لتقريب النص، والتأثير على المتلقي بواسطة اللغة التي تبرز قدرة الشاعر في كيفية تعامله معها، ومدى بعده عن السائد، والمتعارف عليه شعريا. إذ تجسّد اللغة اللمحة الفنية للنص، كما تومئ إلى طرق توظيف تلك الجماليات، والتي قد تكون

أسلوبية أو دلالية ... وقد تكون عناصرها المهمة مكانا أو مشهدا إنسانيا مؤثرا، أو لمحة تاريخية مهمة أو معاناة ذاتية... ومن وجهة نظرنا أن المكان هو من أهم العناصر التي تشكل جمال النص .إذ أن المكان الجغرافي ينبني لغة لتشكل النص عبر الجمالية المكانية، حيث تبرز تعامل الشاعر مع العنصر المكاني وجوانب رؤيته له، والأهداف المتوخاة من ذلك، إذا ما عدنا إلى المتن الشعري العربي .قديما وحديثا لاحظنا بجلاء أن الشاعر العربي ارتبط كثيرا بالمكان الذي ولد فيه وعاش به، فشّده إليه، وتغنى به في شعره ونثره؛ حتى وإن كان المكان بعيدا عنه جغرافيا، فهو قريب منه نفسيا وروحياً.

إنّ للمكان" عميق الأثر في الحياة البشرية، إذ ما من حركة إلا وهي مقترنة به، وما من فعل إلا وهو مستوح لبعض دوافعه منه، وهو أعمق وأكبر، وأهم من أن ينحصر في ما يمثله من ظرف أو وعاء، وأن يقتصر فيه على البين الناتئ من مستوياته، لأنّ كل مناحي الحياة ومستوياتها، وقطاعاتها، بل وكلّ مناحي النفس أيضا تشهد على حضوره الكثيف، وتعدّد مظاهره، وتفصح عن أثره، وتدفع إلى الإقرار بأنّه جزء لا يتجزّأ من كل الموجودات، وكلّ وجوه حركتها وسلوكها ولعلّه ما من قرين للتجربة البشرية مثله، فهو عمادها ومطرحها، وهو مغذيها، وهو مصبها، ومنطلقها، وهو ترجمتها أيضا"[18].

4- المكان في مقامات الهمذاني جماليته ودلالته:

حاول بديع الزمان الهمذاني من خلال توظيفه للمكان في مقاماته، أن يبرز العناصر الجمالية على المستوى المكاني، وكذا الطباعي، والتشكيلي، والصوري، واللغوي للمقامات، حيث اتخذ المكان ركيزة للإبداع، وفي ذلك كلّه بحث عن الجمال المتعدد والمتنوع والكشف عن تجلياته، عن طريق الخبرة الجمالية للوصول إلى المتعة الجمالية، مع أنّ القيمة الجمالية للنص الأدبي كما نعلم تختلف من قارئ إلى آخر ، نتيجة اختلاف الميول، و درجة الإثارة، والانفعالات، والشعور بقيمة الشيء المقروء، واختلاف المرجعيات الفكرية، و المعرفية و التقاليد الفنية المقبولة لكل فرد، بل إنّ القراءة تختلف بالنسبة للقارئ

الواحد باختلاف الزمن، و الحالات والظروف؛ لأنّ القيمة الجمالية نسبية، وإذا حاولنا أن نجرّد المقامة من عناصرها الجمالية، ونجمعها في موضع واحد، خارج نصها، فإنّه في النهاية " يعكس روح العصر الذي أنتج فيه، وشخصية الذي أنتجه، وذلك لأنّ الأديب وليد الحياة وانعكاسا له "[19] أوّلا وأخيرا.

إنّ الناظر في مقامات الهمذاني ليجد أنّ إيراده للمكان جاء على صورتين: الأولى: المكان العام، وقد جسّده في عناوين كثيرة لمقاماته التي أسماها بأسماء المدن التي زارها، والثانية: المكان الخاص وجسّده في ثنايا مقاماته، وقد قارب الهمذاني بينهما ساعيا إلى تحقيق التكامل " بينها لكي تقدّم لنا المفاهيم العامة التي ستساعدنا على فهم كيفية تنظيم واشتغال المادة المكانية في النوع الحكائي "[20]، وهو المقامة في هذا الموضع، التي منحتها هذه الثنائية متانة في البناء، وقوة في الإيحاء، وإحكاما لعناصرها الأخرى، ممّا أتاح للهمذاني سعة للتصوير، وطول نفس للتعبير، وحسن السبك والصياغة، فالمكان من العوامل المؤثرة في تكون الفكر الإنساني ووجدانه؛ لذلك " فإن الرصيد الحضاري (الثقافي والاجتماعي والاقتصادي) نتاج المكان، يترتب على هذا أن المكان هو الذي يشكل الموروث الثقافي للأعراف، والتقاليد، والعادات، والسلوك، بل وملكة التخيل، لدى الفرد والجماعة "[21]، أو قل لكلّ أمة من الأمم، ممّا يجعل المكان كمرآة عاكسة للحياة بأحداثها سواء أكانت واقعية أم خيالية، في نص المقامة.

لقد تصدرت أغلب مقامات الهمذاني بأسماء أمكنة عامة، كالمقامة السجستانية، والمقامة الكوفية، والمقامة الأذربيجانية، والمقامة الجرجانية، والمقامة الأصفهانية، والمقامة البصرية، والمقامة البغدادية، والمقامة الساسنية، والمقامة الموصلية، والمقامة العراقية، وغيرها. اتّخذها الهمذاني بنى استهلالية لنصوص مقاماته؛ لإنشاء فعل الحكي، ولا شكّ أنّ للبداية " أهمية استراتيجية في فهم آليات تكوين النص وانفتاحه، وبداية الجملة العتبية

حلقة تواصل بين المؤلف والسارد من جهة وبين المتلقي من جهة ثانية، وهي الواجهة الشفافة التي تدفع القارئ إلى الاقتراب أكثر من النص"[22].

وفي الأماكن الخاصة تتمة لنص المقامة، كما أنّها آلية من آليات السرد تنمي الأحداث وتكثفها من خلال اللغة والأشخاص، ففي المقامة العراقية مثلا: يلج عيسى بن هشام مكانا عاما هو العراق، ثمّ يتّخذ من الشط مكانا خاصا تدور فيه أحداث المقامة مع أبي الفتح الإسكندري حول الشعر العربي ومميزات بعض أبياته، ومثل ذلك ما جاء في المقامة الموصلية، حين افتتحها عيسى بن هشام بمكان عام هو الموصل، وطلب النزول بإحدى ديارها، فدلّه أبو الفتح على دار مات صاحبها (كما جاء في المقامة)، والتي دارت فيها أحداث المقامة، يقول الهمذاني " ودفعنا إلى دار قد مات صاحبها، وقامت نوادبها... فقال الإسكندري: لنا في هذا السواد نخلة، وفي هذا القطيع سخلة، ودخل الدار لينظر إلى الميّت..."[23] . فالدار في هذه المقامة مكان خاص، ورد في ثنايا المكان العام وهو مدينة الموصل، إلا أنه شكّل عنصرا بنائيا مهمّا في المقامة، أضفى على نسيجها متانة بتكملة أحداثها، وبلورتها وتفاعلها، ممّا يحقق الغاية من سردها.

والعلاقة بين المكان والإنسان هي علاقة تأثر وتأثير، تنبئ عن " توصيفات نفسية مختلفة بحسب طبيعة تلك العلاقات، فالأمكنة فيها الأليف المرتبط بالمشاعر الإيجابية، كالبيت والوطن والمسجد رموز الحماية، والانتماء، والطمأنينة، والنقاء الروحاني، والأماكن المجهولة والمخيفة الواسعة والمحصورة كالسجن والصحارى، والبحور، والغابات، ولا يمكن تجاهل آثار المكان السيكولوجية على الإنسان ودوره في تكوين المعاني العاطفية، للموقع، والأماكن، وربطها بالحياة التي عاشها الإنسان فيها، وربطها بكل إنسان تقاطع معها "[24].

وتطبيق ذلك في مقامات بديع الزمان الهمذاني، ظهور البطل بهيئات وشخصيات أخذت بشيء من حال المكان وطبيعته، فقد فرضت قداسة المكان على الشخصية وقارها،

ونسكها، وإيمانها[25] ، وأعطى السوق داخله صفة الحرية، وفعله ما يريد؛ فتجده يتلذذ بالمكر والخديعة كما جاء في المقامة البغدادية[26] ، وكذلك في الأندية الأدبية[27]، التي تجمع أهل الكلام والأدب وأرباب البلاغة والفصاحة، فإنه تمثّل بالحال التي تليق بهذا المجلس، إذ سما فكره، وارتقت لغته هذه هي الأمكنة التي جمعت بين المكان والإنسان في بعض المقامات وتأثيراتها في حاله. على أنّ الإنسان من خلال حركته في المكان " هو الذي يقوم برسم جمالياته، لذلك فالمكان بدون الإنسان عبارة عن قطعة من الجماد لا حياة ولا روح فيه، كذلك فإن الإنسان بمشاعره وعواطفه ومزاجه يأخذ من الطبيعة وطقوسها وفصولها ما يساعد مشاعره ومزاجه على رسم المكان "[28].

لقد استطاع الهمذاني في مقاماته أن يصنع مكانا إنسانيا وإنسانا مكانيا، وأن يبث التلاؤم بينهما، بما يخدم غرض النص، وحال الأحداث الدائرة بين الشخصيات في المكان، وأن يبرز ذلك التأثر والتأثير الحاصل بينهما، مهما كانت طبيعة المكان، سواء أكان مدينة أو بيتا أو ناديا أو سوقا، أو غيرها. وبيان ذلك على النحو الآتي:

المدينة:

تطالعنا المدينة كعناوين رئيسة في أغلب مقامات بديع الزمان الهمذاني، وبنى مكانية استفتح بها الهمذاني نص مقامته الحكائي، ولمّا كانت المدينة عتبة المقامة فإنّ لها دلالة واضحة، وأن الهمذاني لم يوردها هكذا اعتباطا، بل أثار وجودها وشيجة المتلقي وخياله؛ وليدرجه الهمذاني في سياق المقامة مباشرة، فالعنوان " يعدّ مرسلة مشفرة بين الناص والنص من جهة، والقارئ والنص من جهة أخرى، وبالتالي فإن رصد العنوان وتفكيكه من شأنه الكشف عن دلالات الخطاب وأسراره "[29]، فمعظم المدن التي سمّى بها مقاماته فارسية، وأخرى من العراق، ولعلّ الذي حدا بالهمذاني إلى ذلك معرفته الواسعة بهذه المدن لأنّه فارسي، ثمّ إنّ بلاد فارس مجاورة للعراق فهذا الجوار يتيح له معرفة المدن العراقية التي سمّى بها بعض مقاماته، أو أنّ جمالها المعهود، الذي يجعل منها سببا وجيها

للبطل بأن يسافر إليها؛ لأنها تتمثل بجماليات تميل إليها نفسه وتشتاق وتحن إليها، أو فيها مغانم تستهوي قلبه، فيجد فيها راحته الجسدية والنفسية، يقول في المقامة القريضيّة " حدّثنا عيسى بن هشام قال: طرحتني النوى مطارحها، حتّى إذا وطأت جرجان الأقصى، فاستظهرت على الأيام بضياع أجلت فيها يد العمارة، وأموال وقفتها على التجارة، وحانوت جعلته مثابة، ورفقة اتخذتها صحابة، وجعلت للدار حاشيتي النهار "[30]، فيظهر جليّا تأثير ذكر المكان على صاحبه بعد أن فعلت به الغربة (النوى) ما فعلت، فراح الهمذاني على لسان عيسى بن هشام يتنعم بملذّاتها ويأنس بها من وحشة الغربة، حتّى أنسته ألمها.

وقد اختار الهمذاني من المدينة أرقى مكان، وأعلاه منزلة، والذي ينبئ عن ملامح الحضارة والرقي والازدهار، ومن ذلك ما جاء في المقامة القردية " حدثنا عيسى بن هشام قال: بينا أنا بمدينة السلام، قافلا من البلد الحرام، أميس ميس الرجلة على شاطئ الدجلة أتأمل تلك الطرائف، وأتقصّى تلك الزخارف "[31]، فوصف هذا الأماكن ببغداد (مدينة السلام)، وعلى هذه الصورة الرائقة، يؤكدّ قيمتها لديه، وإلا لما وصفها بهذا الأسلوب المنمّق، فهي عنده تدلّ على كلّ ما يهيئ له الراحة النفسية، حتّى إنّها أزالت عنه تعب رحلة الحج الشاقة.

البيت أو المنزل أو الدار: وردت هذه الأماكن في مقامات الهمذاني، وفيها دلالة على الراحة والأنس والطمأنينة، ولكن المتأمل فيها حين وظّفت في نص المقامات، يجد لها دلالات غير ما تعارف عليه الناس، فقد دلت على الملجأ والمأوى، وخداع الناس والاحتيال عليهم، فغالبا ما احتل البيت في مقامات الهمذاني مكان النهاية والخاتمة، التي يصرح فيها بطل المقامات بخدعه وحيله وحبائل الصيد التي أوقع فيها الناس، يقول في المقامة الموصلية " ودفعنا إلى دار قد مات صاحبها، وقامت نوادبها، واحتفلت بقوم قد كوى الجزع قلوبهم، وشقت الفجيعة جيوبهم، ... فقال: يا قوم اتّقوا الله لا تدفنوه فهو حي وإنما عرته بهتة أو علّته سكتة، وأنا أسلّمه مفتوح العينين، بعد يومين "[32]، ومن هنا يبدأ خداع الإسكندري لأهل

الميت وإيهامهم بأنّه سيحييه، فالهمذاني اعتمد في هذه المقامة على الخلفية الدينية في تشكيله للمكان، وقد كان لها عميق الأثر في تشكيل بناء النص، فبدأ بذكر الموت وحال أهل الميت، مما يضعنا في سياق الشفقة والرحمة، الذي يبين عن البعد الديني المختزن في حضارة الأمة ودينها وقيمها، ثم كانت نهايته سياق آخر لا يرتبط بالأول لا من ناحية المضمون، ولا الشكل، فانتقل من المواساة إلى النصب والاحتيال.

المسجد:

يعدّ المسجد مكانا هاما يوظّف في الأعمال الأدبية، فهو مكان يتوفر على الراحة النفسية للإنسان، ويضفي جوّ الطمأنينة والسكينة، وهو مأوى الإنسان ومنآه عن نكد الدنيا وضيقها، وتصاريف الزمان، ويهرب من سلطتها المادية التي لا تجني إلا الظلم والفرقة، ودلالة المسجد في حياتنا تنم عن طابع قدسي تنتشر هالته الدينية، فتهيمن على كلّ شيء يحويه، على المكان، وعلى الشخصيات، وعلى الأحداث كذلك، وفيه أيضا يستشعر المرء لذّة الإيمان، بعودته إلى سبيل الحق والهداية، ومعرفة الخير من الشر. فصورة المسجد هي مكان للعبادة، وهو ملتقى الناس لأداء الصلاة، أو لسماع الأحاديث النبوية، أو التفاسير القرآنية، أو تعليم القرآن... وغيرها من أمور الدين والدنيا. يقول عيسى بن هشام " فلما نصفت الطريق، اشتدّ الحرّ وأعوزني الصبر، فملت إلى مسجد أخذ من كلّ حزن سرّه، وفيه قوم يتأملون سقوفه، ويتذاكرون وقوفه "[33].

للمكان دور في إعادة الذاكرة الجماعية، والعلاقة بين الإنسان و المكان؛ علاقة فعل و رد فعل؛ أي علاقة جدلية، فبقدر ما يؤثر المكان في نفسية الإنسان (شخصية البطل)، ويسعى للسيطرة عليه لغويا مع تحميله قيما دلالية و رمزية إضافية، قد لا يكون لها وجود في العالم المادي، فالصورة تنبض بالحيوية والحركة، واللغة اختصرت المسافات وقلّصتها.

الخيمة: لا يفارق البطل ميزته في مقامات الهمذاني، فهو يلازم الترحال والترحال يلازمه، ويستمر في رحلته بين البلدان العربية والفارسية، ويظهر في كلّ بلدة منها مرتديا قناعا جديدا، و" حتى يتحقّق التحوّل لا بدّ للشخصية المتحوّلة من أن تلازم السفر وتمجّده "[34]، فالخيمة رمز للبادية، وأهل البدو معروفون بكرمهم وجودهم، يقولون الهمذاني في المقامة النهيدية " حدثنا عيسى بن هشام قال: ملت مع نفر من أصحابي إلى فناء خيمة ألتمس القرى من أهلها، فخرج إلينا رجل حزّقة، فقال من أنتم؟ فقلنا أضياف لم يذوقوا منذ ثلاث عدوفا، قال فتنحنح، ثمّ قال: فما رأيكم يا فتيان في نهيدة فرق كهامة الأصلع في جفنة روحاء مكلّلة بعجوة خيبر "[35]، فتعامل الهمذاني مع المكان يظهر جليّا، من خلال نص المقامة، وكيف بنى نص هذه المقامة من خلال المكان وطبيعته، حيث أنّه راعى فيه ثقافة البيئة العربية المرتبطة في هذا الموضع بنوعية الطعام الذي يطبخ للأضياف، وذكر أصنافه، ليعبّر عن نمط اجتماعي يعكس الحياة في البادية العربية، وفيه يظهر التناسق بين المكان بوصفه مظهرا فيزيائيا، والشخصية بوصفها ذاتا فاعلة، فأبو الفتح الإسكندري في هذه المقامة خرج عن الصفة المعتادة (الكدية) إلى أخرى تناقضها وهي الكرم ولكن صاحبه الاستهزاء، ولم ينل معه الضيف شيئا في النهاية، وكأنه شوّه واقع البادية العربية، من خلال هذا الربط بين الكرم والاستهزاء.

5- الأبعاد الدلالية في مقامات الهمذاني:

تضمنت مقامات بديع الزمان الهمذاني بعض الأبعاد الدلالية، التي كان المكان مرجعا موحيا لهذه الدلالات، ومن ذلك:

- البعد الديني: أدّى المكان في المقامة الأهوازية والمقامة الوعظية وظائف دلالية متعددة، فموضوع الأولى يتناول حقيقة الموت، وأنه مآل كلّ إنسان في هذه الحياة، وقد تقمّص أبو الفتح فيها دور الواعظ الزاهد، يقول الهمذاني " ولمّا اجمعنا على المسير استقبلنا رجل في طمرين في يمناه عكازة، وعلى كتف جنازة، ... وقال: لترّنها صغرا ولتركبنّها كرها وقسرا... "[36]،

وموضوع الثانية الوعظ أيضا وتذكير بالموت والاستعداد ليوم الرحيل، " حدّثنا عيسى بن هشام قال: بينا أنا بالبصرة أميس، حتى أداني السير إلى فرضة قد كثر فيها قوم على قائم يعظهم، وهو يقول: أيها الناس لم تتركوا سدى، وإنّ مع اليوم غدا، وإنكّم واردو هوة، فأعدّوا لها ما استطعتم من قوة وإنّ بعد المعاش معادا "[37].

وقف الهمذاني في هذا الجانب (الديني)، ضد الملحدين، وأخذ بجانب أهل السنة، وشنّ حربا على خصومهم المعتزلة، ويظهر ذلك في المقامة المارستانية، الذي صوّر هذا الموقف تصويرا دقيقا[38].

فهذا الوعظ الديني والردّ على المعتزلة، يدلّ دلالة واضحة على المكان والزمان، ويرتبط به ارتباطا وثيقا، فيدلّ على الحضارة الإسلامية في عهد الخلافة العباسية، ويدلّ على الصراع القائم بين التيارات الفكرية آنذاك.

البعد التاريخي: تدلّ الأمكنة التي ذكرها الهمذاني في مقاماته دلالة واضحة، على البعد التاريخي للحضارة العربية والإسلامية، ليبدو في المقامة شاهدا على زمن ازدهار الحضارة، فقد ذكر بغداد، والبصرة، والعراق، والموصل، وغيرها من المدن العربية.

البعد الأدبي: فتح الهمذاني الباب لمن جاء بعده من الأدباء، من خلال المقامة الإبليسية[39]، بأن يلج فن الكتابة في فن جديد، فلا ريب أنّ هذا المقامة الظريفة هي من فتحت الباب لابن شهيد الأندلسي ليكتب رحلته إلى عالم ما وراء الطبيعة، وهي رحلته " التوابع والزوابع "، ويذهب آخرون إلى أنّ الذي ألهم أبا العلاء المعري رسالة الغفران، ابن شهيد[40].

خاتمة:

- كان للمكان في مقامات الهمذاني بعد جمالي، وآخر دلالي، ساهم في بناء النسق الحكائي للمقامة، فجاء نصّها ذو طبيعة سردية فنية، كشفت عن جمالية هذا النوع الأدبي.

- تمكّن الهمذاني من توظيف المكان في مقاماته على أحسن وجه، بفضل شخصية واحدة تعدّدت أدوارها في مقاماته.

- تعدّدت الخطابات داخل مقامات بديع الزمان الهمذاني، فكان منها: الخطاب الديني، الخطاب الاجتماعي، الخطاب الأدبي.

- مهدت المقامات الهمذانية، لظهور فنّ جديد (العجائبي) تأثر أصحابه بإحدى مقامات بديع الزمان، وهي المقامة الإبليسية.

- استطاع الهمذاني من خلال مقاماته أن يقدّم صورا متنوعة عن المجتمع العربي، ثقافيا وحضاريا وفكريا انطلاقا من الأمكنة التي رصدها في مقاماته.

- ممّا لا شك فيه أنّ المكان يؤثر في عناصر العمل القصصي، كما أنّه يرتبط ارتباطا وثيقا بأدواته الفنية، التي تعمل على تحديد أبعاده الفنية ولا سيما الحدث، الناتج عن الأمكنة التي يعمد المبدع إلى ذكرها في عمله الفني، من أجل إنتاج شخصيات متنوعة ومتمايزة، وعليه فإنّ علاقة المكان بالحدث في المقامة علاقة تلازمية، فلا يمكن أن نتصور أحداثا بلا مكان، فالمكان يأخذ بعدا مهمّا في تشكّل المقامة.

- تعددت الدلالات والأبعاد المكانية في مقامات الهمذاني، تبعا لأصول الهمذاني الاجتماعية والثقافية،وتبعا لنظرته للمكان،و صوره عنده، ورواسبه الفكرية،و مرجعياته الثقافية و غايته من توظيفه.

الهوامش والإحالات:

[1] فن المقامات في الوطن العربي، عبد الملك مرتاض، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،الطبعة الأولى،1980، ص521.

[2] مقامات بديع الزمان الهمذاني، بديع الزمان الهمذاني، شرح محي الدين عبد الحميد، هيئة الكتاب المصرية، مصر، 2002،ص280. ينظر تفصيل الوصف في المقامة الحلوانية.

[3] في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، سلسلة ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، عالم المعرفة،1998،ص2.

[4] فن المقامات في الوطن العربي، عبد الملك مرتاض، ص507.

[5] فن المقامات في الوطن العربي، عبد الملك مرتاض، ص478.

[6] أولية النص، طلال حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1992 ، ص53.

[7] المقامة، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، 1954، ص09.

[8] فن المقامات في الوطن العربي، عبد الملك مرتاض، ص313.

[9] ينظر: المقامات و التلقي، نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2003، ص 106.

[10] الأدب و الغرابة، عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، المغرب،الطبعة الرابعة، 2007، ص90.

[11] الجمالية عبر العصور، إتيان سوريو، ترجمة ميشال عاصي، منشورات عويدات، لبنان، الطبعة الثانية، 1982، ص315.

[12] معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1985، ص62.

[13] عبد الله الغذامي،التشريحية ، دار الطليعة ،لبنان ، الطبعة الأولى،1987، ص12.

[14] مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ميشال عاصي، مؤسسة نوفل، بيروت، الطبعة الثانية، 1981، ص20.

[15] ينظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء العربي ،سوريا ، ط1، 2002، ص 60-67.

[16] الصورة الفنية في النقد الشعري، عبد القادر الرباعي، ص 212.

[17] إشكالية المكان في النص الأدبي، النصير ياسين، دراسات نقدية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986، ص 8.

[18] المكان في الشعر العربي دراسة فنية وصفية، مونسي حبيب، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000، ص 7.

[19] الفن الحديث، محمد بسيوني، دار المعارف، مصر ، الطبعة الثانية، 1965، ص148.

[20] بنية الشكل الروائي، بحراوي حسن، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990، ص36.

[21] خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، إبراهيم نبيلة، مجلة فصول، المجلد49، العددان 1 و2 ، ص49.

[22] جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، عبد الحميد المحادين، ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 2001، ،295.

[23] مقامات بديع الزمان الهمذاني، بديع الزمان الهمذاني، المقامة الموصلية، ص146.

[24] جدلية المكان والزمان والإنسان، المحادين، ص24.

[25] ينظر: المقامة النيسابورية، ص363. والمقامة الوعظية، ص209. والمقامة الأهوازية، ص85.

[26] ينظر: المقامة البغدادية، ص91

[27] ينظر المقامة العراقية، ص231. والمقامة الشعرية، ص463.، والمقامة الجاحظية، ص107، والمقامة القريضية، ص17.

[28] جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، شاهين أسماء، دار فارس، عمان، الطبعة الأولى،2008، ص17.

[29] جدلية المكان والزمان والإنسان، المحادين، ص274.

[30] مقامات بديع الزمان، المقامة القريضية، ص18/17.

[31] المقامة القردية، ص141.

[32] المقامة الموصلية، ص145.

[33] المقامة الرصافية، ص261.

[34] المقامات مقاربة في التحولات و التبني و التجاوز، يوسف إسماعيل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2000، ص37.

[35] المقامة النهيدية، ص293.

[36] المقامة الأهوازية، ص87.

[37] المقامة الوعظية، ص209.

[38] ينظر ردّه على المعتزلة في المقامة المارستانية، ص187. وما بعدها.

[39] ينظر نص المقامة الإبليسية، ص301.

[40] المقامة، شوقي ضيف، ص31.

المصادروالمراجع:

1. الأدب و الغرابة، عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، المغرب،الطبعة الرابعة، 2007.
2. الأسلوبية وتحليل الخطاب، منذر عياشي، مركز الإنماء العربي ،سوريا ، ط1، 2002.
3. إشكالية المكان في النص الأدبي، النصير ياسين، دراسات نقدية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986.

4. أولية النص، طلال حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1992.
5. بنية الشكل الروائي، بحراوي حسن، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990.
6. جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، عبد الحميد المحادين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى،2001.
7. جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، شاهين أسماء، دار فارس، عمان، الطبعة الأولى، 2008.
8. الجمالية عبر العصور، إتيان سوريو، ترجمة ميشال عاصي، منشورات عويدات، لبنان، الطبعة الثانية، 1982.
9. الصورة الفنية في النقد الشعري، عبد القادر الرباعي، مكتبة الكتاني، الأردن، الطبعة الثانية، 1995.
10. عبد الله الغذامي،التشريحية ، دار الطليعة ،لبنان ، الطبعة الأولى،1987.
11. الفن الحديث، محمد بسيوني، دار المعارف، مصر ، الطبعة الثانية، 1965.
12. فن المقامات في الوطن العربي، عبد الملك مرتاض، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،الطبعة الأولى،1980.
13. في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، سلسلة ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، عالم المعرفة،1998.
14. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1985.
15. مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ميشال عاصي، مؤسسة نوفل، بيروت، الطبعة الثانية، 1981.
16. مقامات بديع الزمان الهمذاني، بديع الزمان الهمذاني، شرح محي الدين عبد الحميد، هيئة الكتاب المصرية، مصر، 2002.
17. المقامات مقاربة في التحولات و التبني و التجاوز، يوسف إسماعيل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2000.
18. المقامات و التلقي، نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2003،
19. المقامة، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، 1954.
20. المكان في الشعر العربي دراسة فنية وصفية، مونسي حبيب، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000.

المجلات:

- خصوصية التشكيل الجمالي للمكان في أدب طه حسين، إبراهيم نبيلة، مجلة فصول، المجلد49، العددان الأول والثاني.